الجزء ٩ المجلد ١٠

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : ايلول سنة ١٩٣٠ م الموافق ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ هـ

درس

في حياة أسامة بن منقذ
و « كتاب الاعتبار »

في العام الذي تلا فيه البابا أوربانوس الثاني في كلرمون خطابه الذي يعدّ حقّ باعتبار نتائجه الصليبية أفعل خطاب في التاريخ ، وُلد لبني منقذ الامراء في شيزر على العاصي (وذلك يوم الاحد ٢٧ جمادي الآخرة سنة ٤٨٨ = ٤ تموز سنة ١٠٩٥) غلام أطلق عليه والداه اسماً تحلّى به في صدر الاسلام اول قائد عربي عهد اليه امر فتح الشام[١] ، وكان ذلك الاسم قد ورد في الرُّقُم الحميرية السابقة للاسلام[٢] . ذاكم أسامة بن منقذ ، مؤلف كتابنا هذا وبطله .

عاش أسامة شهماً فارساً ، واشتهر مجاهداً مقاتلا ، ولمع أديباً وشاعرا ، وتلهى صياداً وجوّابا . نشأ على ضفاف العاصي بجوار حماة ، وقضى معظم ايام شبابه في البلاط النوريّ بدمشق ، وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة ، وغالب سني كهولته في الدار الاتابكية بالموصل ، وفي حصن كيفا على دجلة . زار بيت المقدس في فلسطين وحج الى

(١) أسامة بن زيد . (٢) في متحف اللوفر بباريز حجر أتى به من صنعاء الرحالة برکهاردت زبرت عليه كتابة بالقلم المسند تضمنت اسم « أسامة بن عامر » راجع :
M . lidzbarski - Ephemeris Fur Semitische Epigraphik
(Giessen ١٩٠٢) مجلد ١ صفحة ٢٢١ — ٢٢٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحرمين ، وتنقل بين معظم العواصم الاسلامية مدنية ودينية . عاشر نور الدين زنكي ، وصاحب الخليفة الحافظ . وخلفه الظافر ، وتعرّف بنفسه الى بوهمند وتنكرد وغُلْمك من الافرنج الصليبيين ، وخصه قبيل وفاته بدمشق عن ٩٦ عاماً قمريا ، صديقه صلاح الدين بعطفه . آخي الافرنج — ولا سيما الفرسان منهم — في وقت السلم ، وقاتلهم في حال الحرب ، كما قاتل غيرهم من الاسماعيليـة وسائر العرب ، فضلاً عن الأُسد والوحوش الضواري . وفي آخر ايامه دوّن لنا كل ما خبره بالذات ، وعرفه من مصادره الاصلية ، في مذكرات شائقة رائعة قلّ نظيرها — من حيث الامانة في النقل والصدق في الرواية والدقة في الملاحظة وطيب النكهة في التعبير — في آداب اللغة العربية .

فحياة أُسامة إذن تمثل لنا ازدهار الفروسية الاسلامية العربية في ربوع الشام في أواسط القرون الوسطى . التي بلغت زهوها الكامل في عهد صلاح الدين ، وسيرته تتضمن موجز تاريخ البلاد في القرن الثاني عشر — قرن التجريدات الصليبية الثلاث الاولى — ومذكراته الموسومة « بكتاب الاعتبار » مرآة تتجلى فيها المدنية الشامية في أجلى مظاهرها — لا لذاتها فقط بل بالمقابلة مع المدنية الافرنجية التي قامت الى جانبها . وأُسامة لو عاش اليوم لكان بلا ريب عضواً في المجمع العلمي العربي ، ولكان بيته مجلس الأدب بدمشق ، ولراسل «الهلال» و «المقطم» ، ولأكثر من العيش في الهواء الطلق يدرس طبائع الحيوان و يراقب نموّ النبات ، ولنالت جياده العربيـة جوائز السبق في بيروت ، ولكان بلا تردد في اثناء الحرب العظمى جيّش جيشاً من المتطوعة تولى قيادته بنفسه .

* * *

على بعد (١٥) ميلاً الى الشمال من حماة أُكمة صخرية منتصبة على ضفة العاصي الغربيـة يكلّلها حصن لم يزل قائماً الى اليوم معروفاً باسم «سيجر» تحريف شيزر . شيزر هو المرسح الذي تمثلت عليه معظم الحوادث المدوّنة في الكتاب والتي جرت وقائعها في ايام أُسامة الفتى . الهضبة لنتوئها سماها مؤلفو العرب « عرف الديك » . نهر العاصي يلتف حول الأُكمة من جهاتها الثلاث ، فهي إذن شبه جزيرة بوضعها الجغرافي . غير ان الانسان كمّل عمل الطبيعة بحفره خندقاً في الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مما زاد في مناعة الحصن وفي تعذر الوصول اليه . وشيزر قسمان : قسم في القلعة على الرابية وهو البلد ، وقسم قرب الجسر على العاصي وهو المدينة . وللقلعة أبواب ثلاثة أهمها يفتح الى الجسر . وعلى الجسر حصن أطلق عليه اسم « حصن الجسر » .

اذا غزا غازٍ البلاد السورية من الشمال فأمامه طريقان : طريق بحرية تمر في اللاذقية فالساحل الفينيقي — وهي الطريق التي اختارها الاسكندر وكثير من الغزاة الأشوريين ، وطريق داخلية تماشي العاصي الى حماة فحمص ثم تنعطف غربا مع وادي النهر الكبير الى شمالي طرابلس ، أو انها تستمر من حمص في سهل البقاع وتتصل بالساحل الغربي جنوباً عند سفوح سلسلة لبنان . والطريق الثانية هي التي سلكها معظم الفاتحين المصريين والبابليين مثل رعمسيس ونبوخذنصر ، وآثرها اكثر الصليبيين . ولا بد لمن طرق هذه الطريق الثانية من اجتياز أفامية (قلعة المضيق) واختها الجنوبية شيزر المتسلطة على وادي العاصي . هذا مايجعل لموقع شيزر خطورة حربية .

لشيزر اسم في رأس قائمة المدن السورية المتوغلة في القدم . ذكرها طثميس للمرة الاولى بالهيروغليفية نحو سنة ١٥٠٠ (ق . م) وهو يصف احدى حملاته من مصر باسم « سِتزار » او « سِيزار » وذكرها بعده خلفه البعيد امنحوتب الثاني[1] . ووردت بصيغة « زِنْزَر » في رُقم تل العمارنة المسمارية . وسماها اليونان الأقدمون « سِدْزارا » ، والبيزنطيون « سِيزِر » . وفي أواخر القرن الرابع قبل المسيح أسكنها سلوقس الاول مهاجرين من لارِسَا في تساليا وغيّر اسمها الى « لارِسَا » . على ان الاسم السامي الاصلي مالبث ان عاد فتغلّب وظهر بالعربية في صيغة « شيزر » . وعلى هذه الصورة ورد الاسم في بيت قديم لامرئ القيس :

تقطّع أسبابُ اللُّبانة والهوى عشية رحنا من حماة وشيزرا

وفي آخر لعبيد الله بن قيس الرُّقَيات :

فواحزناً اذ فارقونا وجاوروا سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا[2]

---

(١) راجع J. H. Breasted Ancient records of egypt (chicago ١٩٠٦) مجلد ٢ فقرة ٥٨٤ و٣١٤ . (٢) ياقوت « معجم البلدان » (ليبزغ ١٨٦٨) ٣ : ٣٥٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اما مؤرخو الافرنج الصليبيون فأطلقوا عليهـا اسم « قيصرية » (Coesarea) او « قيصرية العاصي » للتمييز ·

فتح العرب شيزر عام ١٧ (٦٣٨) فيما فتحوا من المدن الشامية ، وذلك عقب الاستيلاء على حمص وحماة بقيادة ابي عبيدة بن الجراح ، فتلقاه اهل شيزر « يكفّرون ومعهم المقاسون ، ورضوا بمثل ما رضي به اهل حماة[1] » · وبالنظر لموقع البلدة الجغرافي ، وباعتبار كونها مفتاح سورية الداخلية ، بقيت مطمح ابصار البيزنطيين الذين استخلصوها مراراً من ايدي العرب وخسروها ، الى ان أخضعها الامبراطور باسيل الثاني سنة ٩٩٩ وبقيت بيد الروم حتى عام ١٠٨١ وهو العام الذي استرجعهـا فيه عز الدولة سديد الملك ابو الحسن علي جد أسامة من ايدي الامبراطور ألكسيس كومنينس ·

* * *

وكان صالح بن مرداس صـاحب حلب قد منح الامراء المنقذين من بني كنانة عام ١٠٢٥ إقطاعاً في جوار شيزر · فتمكّن احد هؤلاء الامراء (مقلّد) من الاستيلاء على كفر طاب سنة ١٠٤١ · وجاء بعده خلفه ابو المتوّج مقلّد بن نصر الذي بسط سلطته الى العاصي وبنى حصن الجسر عند قدمي شيزر ليقطع عنها المدد · ولكن البلدة بقيت بيد البيزنطيين الى ايام سديد الملك · فسديد الملك اذن هو مؤسس الدولة المنقذية بشيزر · ولدن وفاته عام ١٠٨١ عقبه ابنه عز الدولة ابو المرهف نصر[2] ، وهو مع اشتهاره بالورع وحب السلام تولى الى حين أفامية و كفرطاب واللاذقية عدا شيزر ·

توفي ابو المرهف بلاعقب عام ١٠٩٨ ، فانتقلت الإمارة من بعده الى اخيه الأصغر مجد الدين ابي سلامة مرشد (١٠٦٨—١١٣٧) ، والد مؤلف كتابنا أسامة · ولكن مجد الدين شغف بالصيد ونسخ القرآن اكثر من السياسة ، فتنازل عن السيادة لاخيه الأصغر عز الدين ابي العساكر سلطان مردّداً (والله لا وليتها · ولأخرجن من الدنيا كما

---

(١) البلاذري «فتوح البلدان» (ليدن ١٨٦٦) ١٣١ · (٢) فصّل ذلك ابن الاثير « كامل التواريخ » في Recueil des Historiens des Croisades Historiens Orientaux (paris ١٨٧٢) ١ : ٥٠٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دخلتها [١] .

وكانت شيزر على عهد سلطان عم أسامة عرضة لغزوات متتابعة يغزوها بنو كلاب في حلب ، وكذلك الاسماعيلية والروم البيزنطيون والافرنج الصليبيون رشقها الامبراطور جان كومنينس عام ١١٣٨ بالمنجنيق عشرة ايام متوالية . وحاول الافرنج الاستيلاء عليها مراراً ، ولكن على غير جدوى . فأنقذتها من السقوط مناعتها الطبيعية وحصونها القوية ، وزعامتها المنقذية .

وفي خلال إمارة (سلطان) جرت معظم الحوادث التي دوّنها أسامة في مذكراته ، وهو شاهد عيان لها ، فخلد وقائعها وجعلها ارثاً لنا . ومع ان أسامة كان احد اخوة اربعة هو ثانيهم ، فان عمه سلطاناً — ولم يكن له اولاً ولد ذكر — خص أسامة بعطفه ورعايته ، ودرّبه على الفنون الحربية ، وكان يمتحن بالسؤال حضور ذهنه في ساعة القتال [٣] ونشأه نشأة من يريد ان يجعل منه خلفاً له . وكثيراً ما وكل اليه قضاء مصالح اهل بيته مثل مرافقته لزوجة عمه واولادها من شيزر في ايام الحر الى مصياد [٣] . اما بعد ان رزق العم ولداً يخلفه فوجهة نظره نحو ابن اخيه تغيرت ، والحسد أخذ يعمل فيه ، مما جعل أسامة الشاب يغادر شيزر موقتاً عام ١١٢٩ ، ثم اطردت هجرته بعد وفاة والده أخي سلطان في ٣٠ ايار سنة ١١٣٧ . وكانت جدة [٤] أسامة لابيه حذّرته مرة من عمه وقد رأت حفيدها داخلاً البلدة مساء وبيده رأس أسد ضخم كان قد اصطاده ، فأسدته النصح مشيرة الى الأثر الذي يحدثه عمله هذا في نفس عمه قائلة له « مايقربك هذا منه وانه

---

(١) ابو شامة « كتاب الروضتين في اخبار الدولتين » (مصر ١٢٨٨) ١ : ١١١ — ١١٢ وابن الاثير في (Recueil) ١ : ٥٠٤ . (٢) « كتاب الاعتبار » (ليدن ١٨٨٤) ٧٦ ولا بد من التنبيه الى ان الاشارات فيما بعد كلها الى هذه الطبعة — طبعة درنبورغ — ريثما تتم الطبعة الجديدة المبنية على المخطوطة الاصلية والتي تتولى الآن طبعها في مطبعة جامعة برنستون العربية . (٣) كتاب الاعتبار ١٠٩ .

(٤) ابن الاثير « تاريخ الدولة الأتابكية » في (Recueil » (paris ١٨٨٧ مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٠٠ يجعلها والدته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يزيدك منه بعداً و يزيده منك وحشةً ونفوراً [١] » . ومع هذا فان (كتاب الاعتبار) يحفظ لنا نكتة تمثل شهامة سلطان . وخلاصتها ان امرأة كان قد تزوجها سلطان وطلقها فوقعت أسيرة في يدالافرنج ، ففكّ للحال أسرها وسلمها الى اهلها قائلا « ماأدعُ امرأة تزوجتُها وانكشفتْ عليَّ في أسر الافرنج [٢] » .

توفي سلطان حوالى عام ١١٥٤ فخلفه ابنه تاج الدولة ناصرالدين محمد ، وهو آخر الامراء من بني منقذ وفي ايامه جرت في شيزر مأساة مفجعة قضت على بني منقذ باسرهم . وذلك خلال ختان ولد لتاج الدولة فقد أولم الوالد وليمة حضرها جميع آله ، وفي اثنائها حدث الزلزال الشهير عام ٥٥٢ (١١٥٧) الذي « هلك فيه مالايحصى » والذي خرّب حماة وشيزر و كفرطاب والمعرة وأفامية وحمص وحصن الاكراد الخ [٣] » « ولم ينج من بني منقذ احد [٤] سوى زوجة تاج الدولة التي انتشلت من تحت الردم ، الا ان نور الدين صاحب دمشق عاد فعمر شيزر .

(التأثير الاكبر في نفسية أسامة كان لعمه سلطان وبعده لوالده) = تمثل صورة الوالد التي ابقاها لنا أسامة في مذكراته رجل تقوى وسلام لا تهمه شؤون هذا العالم الفاني ، يفرغ « زمانه لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نهاره ، وفي الليل ينسخ كتاب الله [٥] » . مع ذلك لايجب ان يُفهم من ذلك انه كان متقاعداً جباناً . ففي غير مكان يذكر أسامة ان والده لم يكن « له شغل سوى الحرب وجهاد الافرنج ونسخ كتاب الله [٦] » ثم يقتبس عنه عبارة قالها لمحذّره ولده في معركة : « ياولدي في طالعي انني لاارتاع [٧] » .

ولنستشهد الآن ببعض الوقائع الدالة على نوع التربية التي تراها أسامة في ظل والده وعمه ، وسرّها كلها في قول أسامة « ما رأيت الوالد رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر ، مع ما كان يرى فيَّ وأرى من اشفاقه وايثاره لي [٨] » . أسامة وهو دون العاشرة [٩] ، يطعن خادمه طعنة تجيء قاضية دون ان يستوجب سخط والده

---

(١) كتاب الاعتبار ٩٣ . (٢) ص ٥٣ . (٣) ابن الاثير في « Recueil » ١ : ٥٠٣ . (٤) ايضاً ١ ـ ٥٠٥ ـ ٥٠٦ . (٥) كتاب الاعتبار ١٤٤ .
(٦) ايضاً ١٩٩ . (٧) ايضاً ٤١ . (٨) ايضاً ٧٦ . (٩) ايضاً ١٠٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يباشر القتال وهو حدث يافع فيذكر كيف أنه في اول قتال حضره حمل على افرنجي طعنه فخرج من السرج لخفة جسمه وقوة الطعنة[١] . يرى حية وهو صبي على حائط الدار فيتسلق اليها و يأخذ يحزّ رأسها بسكينه الصغير وهي تلتف على يده ووالده يراه ولا ينهاه[٢] . تعود رهائن من افرنج وأرمن كانت في شيزر الى بلدها فتقع في ايدي صاحب حمص وهو مسلم ، فتصدر اوامر والد أسامة له في هذه الصيغة « اتبعهم بمن معك وارموا انفسكم عليهم واستخلصوا رهائنكم[٣] » الكلمات الأخيرة (ارموا بانفسكم) تقع من نفس أسامة موقعاً شديداً .

وللدلالة على الرابط البنوي الذي كان يربط الابن بالوالد يكفي الاستشهاد بعبارة أوردها أسامة بعد ان أطنب بحسن خط والده : « وما يقتضي الكتاب ذكر هذا وانما ذكرته لأستدعي الرحمة (على الوالد) ممن وقف عليه[٣] » .

أما والدة أسامة فلنا ان نتحقق المعدن التي جبلت منه من مراجعة حادثة ذكرها أسامة[٤] . ومفادها ان الاسماعيلية مرة هاجمت شيزر والرجال متخلفون ، فوزّعت أم أسامة السلاح والبست ابنتها الخف والازار واجلستها على روشن يشرف على الوادي حتى اذا ما انتهى الاعداء اليها تدفعها وترميها الى الوادي فتراها ميتة ولا اسيرة في ايدي « النلاّحين والحلاّجين[٤] » . حقاً ان والدته كجدته كانت من « أمهات الرجال[٥] » .

تلك هي البيئة التي نشأ فيها أسامة وترعرع . فتصلّب عوده وهو مرن ، والف اقتحام المخاطر والمغامرات ، ونشأ على مباديء الفروسية والشهامة . وذلك في عصر تلاحقت فيه الحروب ، وتتابعت الغزوات من الافرنج والعرب ـ من مسيحيين ومسلمين ، وفي بلاد كثرت فيها الوحوش الضارية والحيوانات المفترسة . حتى ان أسامة ما كان يخرج للصيد في جوار شيزر الا وهو مسلّح مستعد للعدو المفاجيء[٦] . ولم يشهد أسامة القتال في شيزر وحماة في شمالي سورية فقط ، بل في عسقلان وبيت جبرين

(١) كتاب الاعتبار ٣٠ . (٢) ايضاً ٧٦ . (٣) ايضاً ٣٩ .
(٤) ايضاً ٩٢ . (٥) ايضاً ٩٣ . (٦) ايضاً ١٤٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من اعمال فلسطين ، وفي شبه جزيرة سيناء ومصر ، وفي ديار بكر والموصل . فلا غرو اذا أصبح اسم أسامة في التواريخ الاسلامية مرادفاً للبطولة .

ولقد دعاه الذهبي « احد أبطال الاسلام[١] » ووصفه ابن الاثير بانه « كان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها[٢] » . وأسامة نفسه أجمل اختباراته الحربية بقوله في آخر ايامه « فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والاخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلتُ الاسود ، وضُربتُ بالسيوف ، وطُعنتُ بالرماح ، وجُرحتُ بالسهام والجروح[٣] » ! هتاف ليس المقصود منه التأثير الخطابي فقط بل تبيان الحقائق

ومن خلال كل هذه التجارب تتبين لنا شخصية أسامة . فاذا بها شخصية مستسلمة تستقبل الأفراح ، وتودّع الأحزان ، تواجه الظفر وتجابه الفشل ، بروح الصبر والتسليم . النصر — باعتبار أسامة — من الله[٤] . وكذلك الهزيمة . الموت لا « يقدّمه ركوب الخطر ، ولا تؤخره شدة الحذر[٥] » . « الله مقدّر الأقدار ، وموقّت الآجال والأعمار[٥] » . في الجملة الاخيرة متضمّن فلسفة الحياة بامرها كما فهمها أسامة .

وفي مجمل معاملاته مع اصدقائه وخصومه يدهشنا ميله للنصفة والعدالة . هاكه مع رفيق في مكان مشرف على ثمانية فرسان من الافرنج . الرفيق يشير باخذهم على غرّة ، ولكن جواب أسامة : « ما هذا انصاف ، بل نحمل عليهم انا وانت[٦] » والمبهج انه لا يتم سرد هذه الحادثة ، التي هزم فيها مع رفيقه ثمانية ، حتى يشرع بسرد غيرها يهزمها فيها «رويجل»[٦] . يروي قصة ممتعة تظهر الطب الافرنجي سقيماً بالمقابلة مع الطب العربي[٧] — وهي من أبدع قصص الكتاب — ثم يردفها باخرى تظهر الوجهة الفضلى من طب المغرب[٨] . يطنب بوالده صياداً . ولكن سلامة ذوقه توحي اليه على الأثر « ما أدري : كنتُ أراه بعين المحبة . كما قال القائل : وكل ما يفعل المحبوب

---

(١) « دول الاسلام » (حيدرآباد ١٣٣٧) ٢ : ٧١ . (٢) « الدولة الاتابكية » في (Recueil) مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٠٧ . (٣) « كتاب الاعتبار » ١٢١ — ١٢٢ (٤) ايضاً ١٠٩ . (٥) ايضاً ١٢١ . (٦) ايضاً ٤٣ . (٧) ايضاً ٩٧ — ٩٨ . (٨) ايضاً ٩٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

محبوب . ما أدري : أكان نظري فيه على التحقيق . وأنا ذاكر شيئاً من ذلك ليحكم فيه من يقف عليه[١] .

قضى أسامة سنين غير قليلة في البلاط الفاطمي بمصر (١١٤٤ – ١١٥٤) وربما لم يكن لذلك العهد من دار عشّشت فيها جراثيم المكائد والمفاسد كما في تلك الدار : يد الوالد على الابن ، والابن على الوالد ، ويد الخليفة على الجميع . ابن الاثير[٢] يدّعي ان أسامة هو الذي أشار على عباس بن ابي الفتوح بقتل العادل وزير الظافر[٣] . ولكن مذكرات أسامة لاتدلّ على انه لوّث يديه في حال من الأحوال . صلاح الدين الغسياني ، ذلك الجلف التركي ، يوسّط من يشاء من رجاله (اي يأمر بقطعهم من الوسط شطرين) لسبب او لغير سبب ، فلا يتردد أسامة في الشفاعة بهم[٤] . عمّ أسامة يجلوه عن مسقط رأسه ، ثم يودي الزلزال بحياة ابن عمه وسائر آله في شيزر ، فيرثيهم أسامة الشاعر بقصيدة كلها شعور طيب :

لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم ... قلباً أجشمه صبراً وسلوانا
فلو رأوني لقالوا مات أسعدُنا ... وعاش للهم والأحزان أشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبّرني ... عنهم فيوضح ما قالوه تبيانا
بادوا جميعاً وما شادوا فواعجباً ... للخطب أملك عمّاراً وعمرانا
هذي قصورهم أمست قبورهم ... كذاك كانوا بها من قبل سكانا

الى ان يقول :

بنو أبي وبنو عمي دمي دمهم ... وان أروني مناواةً وشنآنا[٥]

وان احترام أسامة للنساء لامر يسترعي انتباهنا . فانا نراه يضع تأليفاً موسوماً « باخبار النساء » و يخصص في (كتاب الاعتبار[٦]) صفحات للاشادة باعمال البطولة التي قام بها بعضهن وبينهن والدته . وفي قصته مع خادمته العجوز التي أفرد لها بيتاً في

(١) « كتاب الاعتبار » ص ١٤٤ . (٢) « كامل التواريخ » أپسالا ١٨٥١ ١١ : ١٢١ . (٣) قابل « كتاب الاعتبار » ٦ . (٤) ايضاً ١١٦ – ١١٧ .
(٥) ابو شامة ١ : ١٠٦ . (٦) ٨٧ – ٩٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

داره وكان يناديها « ياأمي [١] » نافذة نطل منها على الشيء اللطيف ضمن أعماق نفسه . وما ألطف ملاحظته بعد ن افتدى اسيرة مسلمة مع غيرها من يد الافرنج فهربوا قبل ان يدفع الفداء فألزمه الافرنجي القيمة كلها « وهان ذلك عليّ لمسرتي بخلاص اولئك المساكين [٢] » .

حين لم يكن أسامة منهمكاً بقتال الاعداء من البشر كان يشتغل بقتال الحيوانات المفترسة التي كانت سورية الشمالية بومئذ ملأى بها ، او بصطاد الغزلان والطيور والأرانب وحمُر الوحش بالبازي والباشق في شيزر ودمشق وفي الموصل والقاهرة . وترى زبدة اختباراته ضمنها فصلاً في الصيد ختم به كتابه ، فصل ربما لم يكن في اللغة العربية أنفس منه في موضوعه . أسامة يقول عن نفسه انه شهد الصيد سبعين سنة [٣] وانه حضر قتال الاسد في مواقف لاتحصى ، وقتل عدة منها لم يشاركه في قتلها احد [٤] وان الخليفة الحافظ عناه في سؤاله الانكاري « واي شيء شغل هذا الا القتال والصيد؟ [٥] » لذّته في درس الحيوان جعله يكتشف ان « الأسد كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان [٦] » وان « الاسد اذا خرج من موضع لابدّ له من الرجوع اليه [٧] » وان « الاسد مثل سواه من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه ، وفيه غفلة وبله ، ما لم يُجرَح ، فاذا جُرح فحينئذ هو الاسد [٨] » .

وان النمر « دون سائر الحيوان يقفز الى فوق اربعين ذراعاً [٩] » . على ان صاحبنا شارك جيله في بعض خرافاتهم : « ومن خواص النمر انه اذا جرح الانسان وبالت عليه فارة مات ، ولا ترتد الفارة عن جريح النمر [٩] » . ولما عرض افرنجي في حيفا (فهداً) للبيع أدرك أسامة لاول نظرة من طول الوجه وزرقة العينين انه نمر لا فهد ولا يصلح للشراء [٩] » . ومن دقيق ملاحظاته ان الحُبارى اذا اقترب منها الصقر (استقبلته

(١) كتاب الاعتبار ص١٣٨ . (٢) ايضاً ٦٢ . (٣) ايضاً ١٦٧ .
(٤) ايضاً ٨١ و١٠٦ . (٥) ايضاً ١٤٢ . (٦) ايضاً ٧٨ . (٧) ايضاً ٧٨ لم أجد في الكتب العلمية ما يثبت صحة هذه الملاحظة . (٨) ايضاً ٨١ .
(٩) ايضاً ٨٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بذنبها . فاذا دنا منها سلجت عليه بأت ريشه وملأت عينيه وطارت [١] » .

نظر أسامة للصيد كسبب للهو — ظاهر من البيت الذي استهل به فصله :

ولله مني جانبٌ لا أضيعه وللهو مني والبطالة جانبُ [٢]

ونزعته الارستقراطية تلوح من عدم تلبيته طلب نورالدين عندما سأله ان يصلح الباز فرفض وأجاب — لما أظهر نورالدين عجبه كيف ان أسامة يقضي عمره بالصيد ولا يحسن إصلاح الباز — « يامولاي ما كنا نصلحها نحن ، كان لنا باز ياربة وغلمان يصلحونها [٣] » .

درس أسامة النحو عشر سنين على (ابوالطُّمَيطُلي ، سيبويه زمانه) الذي كان قد تولى دار العلم بطرابلس [٤] . ولا شك ان سياق دروسه تناول فضلاً عن النحو الخط والشعر والقرآن — وهي فروع الثقافة في ذلك العصر . فتهذّب أسامة على الطريقة التي كان يتهذّب بها أشراف العرب في زمانه . ونشأ راميةً كاتباً ، وادباً شاعراً .

بهذه الصفة الاخيرة عرفه معظم الذين ترجموه . فالذهبي [٥] يذكر عن لسان أسامة انه قال كان يحفظ اكثر من عشرين الف بيت من الشعر الجاهلي ، والراجح انه لم يتصل بجيل أسامة هذا المقدار من الابيات . ويقول عمادالدين الكاتب الاصفهاني الذي اجتمع باسامة في دمشق في « خريدة القصر وجريدة العصر [٦] » : « أسامة كاسمه ، في قوة نثره ونظمه .... حلو المجالسة ، حالي المساجلة ، ندي الندى بماء الفكاهة ، عالي النجم في سماء النباهة » . ابن عساكر تلميذ أسامة ، ذكر في (التاريخ الكبير [٧]) ان لأسامة « يداً بيضاء في الأدب والكتابة والشعر » واقتبس عن لسانه احدهم قوله ان أسامة « شاعر اهل الدهر ، مالك عنان النظم والنثر » وان مقطعاته « أحلى من الشهد

---

(١) كتاب الاعتبار ١٠٣ قابل C. H. Stockley, Big Game Shooting in the indian Empire (London ١٩٢٨)

(٢) كتاب الاعتبار ١٣٩ . (٣) ايضاً ١٤٤ . (٤) ايضاً ٥٣ : .

(٥) ملحق (Paris ١٨٨٩) « Vie d' ousàma » Derenbourg, ص ٥٩٥

(٦) (باريز ١٨٨٧) ١٢٢ .

(٧) (دمشق ١٣٣٠) ٢ : ٤٠٠—٤٠١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والذ من النوم بعد طول السهد » . واقتبس ياقوت في (معجم البلدان [١]) من أشعار أسامة . وأفاد ابوشامة [٢] ان صلاح الدين الايوبي كان « عنده ديوان الامير مؤيد الدولة أسامة ... وهو به مشغوف ، وخاطره على تأمله موقوف ، والى استحسانه مصروف » . وصالح بن يحيى (٣) يفاخر باقتناء ديوان شعر «عز الدين ! » أسامة بن منقذ بخطه . وعليه فيكون أسامة قد عُرف لمعظم الذين ترجموا له بشاعريته .

وهاك ابياتاً تدل على قوة الابداع في أسامة الشاعر قالها في ضرس له قلعه :

وصاحب لا أملّ الدهر صحبته ... يشقى لنفعي و يسعى سعيَ مجتهدِ
لم ألقه مذ تصاحبنا لحين بدا ... لناظريَّ افترقنا فرقة الابدِ [٤]

وغيرها كتبها على حائط مسجد في حلب ، وكان قد زار المسجد قبلاً في طريقه الى الحج :

لك الحمد يا مولاي كم لك منةٌ ... عليَّ وفضلٌ لا يحيط بها شكري
نزلتُ بهذا المسجدِ العامَ قافلاً ... من الغزو موفورَ النصيبِ من الاجر
ومنه رحلتُ العيسَ في عامي الذي ... مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديتُ مفروضاً وأسقطتُ ثقل ما ... تحملتُ من وزر المسيئة عن ظهري [٥]

وأخرى تعرب عن حنينه لوطنه الشامي وتوق نفسه للرجوع الى اهله ، وقد كتبها على حائط دار سكنها بالموصل :

دارٌ سكنتُ بها كرهاً وما سكنتْ ... روحي الى شجنٍ فيها ولا سكنِ
والقبرُ أستترُ لي منها وأجملُ بي ... إن صدَّني الدهر عن عودي الى وطني [٦]

واليك ما كتب في صدر كتاب الى بعض اهله :

---

(١) (دمشق ١٣٣٠) ٢ : ٤١٧ . (٢) ١ : ٢٤٧ . (٣) « تاريخ بيروت » (بيروت ١٩٠٢) ٣٥ — ٣٦ . (٤) الذهبي ملحق (Vie d, ousàma) ٥٩٦ . قابل ابن عساكر ٢ : ٤٠٢ ، ابن خلكان ١ : ١١٢ ، ابوشامة ١ : ٢٦٤ ، عماد الدين الكاتب ١٢٣ . (٥) ابن الاثير « الدولة الاتابكية » في (Recueil) مجلد ٢ جزء ٢ ص ٢٠٨ . (٦) ابن عساكر ٢ : ٤٠١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شكا ألمَ الفراقِ الناسُ قبلي ورُوِّع بالنوى حيٌّ وميتُ
وأما مثل ما ضمَّتْ ضلوعي فاني ما سمعت ولا رأيت (١)

ويتضح شغف أسامة بالكتب من ملاحظة أبداها عندما عادت أسرته من مصر فوقعت في ايدي الافرنج وخسر الكثير من المال فلم يأسف عليه أسفه على ما فقد من الكتب وعددها اربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة « فان ذهابها (على ما قال) حزازة في قلبي ما عشت (٢) .

« للبحث صلة »

جامعة برنستون : فيليب حتي
عضو المجمع العلمي العربي

(١) ابن خلكان ١ : ١١١ .
(٢) « كتاب الاعتبار » ٢٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net